

المفاهيم المتعلقة بالتراث والأدب الشعبيين *Concepts related to heritage and folk literature*

أ. فاطمة درارس

المركز الجامعي لتاهنغست

(derares_fatima@yahoo.fr)

مَجَلَّةُ أَفَاقِ الْعِلْمِ

يتناول هذا البحث المفاهيمي جملة من العناصر المفتاحية الضرورية للولوج إلى أبحاث موضوع هذا العدد، أهمها:

- الفلكلور: نشأته ومفهومه، فروعها، وأهميته دراسته.

- الأدب الشعبي: المفهوم والمضمون، وسماته، وعلاقته بالأدب الرسمي، ووظائفه.

Abstract

This research deals with a number of necessary conceptual key elements to access the research theme of this issue, including:

Folklore: its origin and its concept, its branches, and the importance of studying it.

Folk literature - the concept and content, its characteristics, its relationship to the official literature, and its functions.

Résumé

Les concepts portant sur le patrimoine et la littérature populaires

Ce travail de recherche, portant sur l'aspect conceptuel, traite une série d'éléments clés qui sont nécessaires pour accéder à la thématique de recherche de ce numéro, parmi ces éléments, nous citons:

- *Le Folklore: ses origines, sa signification, ses branches et l'importance d'aborder son étude.*
- *La littérature populaire: son concept, son contenu, ses caractéristiques, ses fonctions et sa relation avec la littérature officielle.*

تمهيد

يعتبر الأدب الشعبي أهم وسيلة تعبر بها الأمم عن أحلامها وتطلعاتها وانشغالاتها، من دون قيد أو أي شيء يعيق تحركاتها.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر هذا الأدب سجلها التاريخي عبر كل المراحل، بحكم أنه يؤسس لكل فترة زمنية يعيشها الإنسان.

ولهذا اعتبر الأدب الشعبي من أهم الدراسات، لكل من يحاول دراسة نفسية شعب من الشعوب، كونه الوحيد الذي يساعد على إدراك الخصائص الأساسية لهاته الأخيرة (الشعوب).

وميزة هذا النوع من الأدب أنه شفاهي، وبقي كذلك حتى الآن، على الرغم من التدوين ومحاولة الجرد، إلا أن أغلبه يبقى غير ذلك، متوازنا جيلا بعد جيل، ويشمل في عمومه الفنون القولية مثل: الحكاية الشعبية، الأغاني الشعبية، النكت والألغاز، وال نوادر، ونداءات الباعة، وشعاراتهم، بالإضافة إلى التعبيرات الشعبية الشائعة.. وتكون في الحقيقة وفي الغالب على لسان المجتمعات التي تعمل على إبداعه وصياغته.. حتى وإن أسند إلى شخص معين..

وللأدب الشعبي أهمية بالغة في محاولة الربط بين الماضي والحاضر، وعليه تتسارع مؤسسات البحث في التراث لتقييمه ودراسته، لأنه فعلا يستحق ذلك، وكونه جزءا لا يتجزأ من تراثنا وأصالتنا العربية.. وقد قيل في ذلك: "من لا تراث له لا وطن له"، والدراسة التي نقصد الحديث عنها هي الدراسة الهادفة والبناءة، البعيدة كل البعد عن أشكال السخرية.. لأن ما نلمسه حاليا فيما يخص الاهتمام بدراسة وتحليل أدبنا الشعبي ينصبّ جله حول ما يضحك ويسلي، تاركين بذلك ما هو مؤسس لهاته الأمة، ومؤرخ لها بشكل عام.

1. الفلكلور: نشأته ومفهومه.

من الأشياء المسلم بها أن الفلكلور ليس حديثا، بل يرجع إلى العصور القديمة قدم الإنسان، فالمؤرخ اليوناني قد نقل لنا الكثير مما جاء

في كتب الرحلات والتاريخ والأدب، التي تحمل في طياتها غنى فلكلوريا كبيرا بالمفهوم الحديث للفلكلور.

أما الحديث من المؤلفات العربية القديمة، فهي أيضا قد عرفت زحما كبيرا، فنذكر ما جاء به الجاحظ في كتابه (الحيوان)، ورحلات ابن بطوطة، وكليمة ودمنة لابن المقفع، بالإضافة إلى كتاب الأغاني للأصفهاني، وتاريخ الطبري.. وغير ذلك من المؤلفات العربية التي أرخت للفلكلور العربي آنذاك...

ويعتبر عصر النهضة الفترة الفعلية لدراسة الفلكلور، حين بدأت حركات التحرر على المستويين الفكري والديني بالظهور، وخير دليل على ذلك، حركة "التحرر الأوروبية" التي كانت تعتبر "تراثها الشعبي هو هويتها القومية بدون منازع، بالإضافة إلى الحركة الرومانسية التي ثارت على الظلم والاستبداد، وخرجت على كل ما هو كلاسيكي، فتحولت باهتماماتها من الآداب المدونة إلى الشفاهية، ومن المدينة إلى الريف، تترجم اهتمامها بالشعب"⁽¹⁾ المتمثلة في جمع الأغاني الشعبية، وتقديس كل ما يتعلق بالوطن.

1- تعريف الفلكلور:

كان أول من استعمل المصطلح الإنجليزي "وليم تومز"، ويتكون المفهوم من كلمتين هما: (Folk) التي تعني العامة أو الشعب، و(Lore) وتعني المعرفة، وعليه يكون المعنى العام هو "معارف العامة، أو معرف الشعب"، والتي نقصد بها: العادات والتقاليد والأساطير والخرافات، والأغاني الشعبية والأمثال والحكم.. وكل ما يتعلق بتراث شعب معين، وعندما نبحت أكثر في هذا المفهوم في معجم (المصطلحات الأنثروبولوجيا والفلكلور)، نجد بالمعنى التالي: "أنثروبولوجيا تتعلق بالإنسان البدائي، وتعكس هاته الأنثروبولوجيا مجموعة من المعارف والخبرات والفنون، عبّر الإنسان بواسطتها عن أحاسيسه، ورغباته، وتجربته، وجعلها هاديا له في تنظيم أموره الحياتية الاجتماعية، ويحافظ المجتمع على نقلها من جيل إلى جيل الذي يليه"⁽²⁾.

ومن خلال إجراء مقارنة بين المفهومين لاحظنا أن التعريف الأول كان هدفه الإحاطة بفروع الفلكلور فقط، أما الثاني فكان جامعا وشاملا، لأنه في الحقيقة خلاصة ما جاءت به مجموعة من الدراسات والأبحاث في هذا المجال.

أما الحديث عن الفلكلور العربي، فنلاحظ أنه عرف تأخرا كبيرا، ويرجع تحديد فترته الزمنية إلى الحرب العالمية الثانية، وقد أرجع الدكتور "عبد اللطيف البرغوثي" هذا الأمر إلى سببين هامين هما: "الأول: الخوف من طغيان العامية، وبالتالي على القرآن الكريم والتراث العربي الكلاسيكي، خصوصا في ظل الدعوات الإقليمية التي كانت تنادي بإحلال العامية محل الفصحى، وموجهها في ذلك الاستعمار.

وثانيا: الخوف على المأثور الشعبي أن يقتصر أو يتغير كثيرا، وهو غير مدون؛ فيضيع بذلك مصدر من أهم مصادر لدراسة عادات الشعب حياته وتقاليده، وعندما رجح الخوف الثاني على الأول، بدأ الناس يقدمون على تدوين المأثور الشعبي." (3)، وبداية الاهتمام بالتراث الشعبي كانت فردية غير منظمة، وقد مثل هاته المرحلة "أحمد تيمور" في كتابه الموسوم بـ: "الأمثال العامية" .. لكن مع البداية الفعلية التي يمكن أن نتحدث عنها، ونعتبرها البوادر الأولى في الاهتمام بتراثنا العربي، هي الدراسات الأكاديمية، التي تنجز لنيل الدرجات العليا في التراث الشعبي، بالإضافة إلى الأبحاث التي بدأنا نلاحظها في المكتبات العربية، على شكل مؤلفات أو مجلات متنوعة (سياسية، اجتماعية، ثقافية، أدبية..) كما لا ننسى المنتديات والملتقيات الوطنية والدولية المنعقدة في الوطن العربي، والتي يكون محور حديثها عن الفلكلور، أو أحد موضوعاته... " ومن مظاهر اهتمام الدارسين العرب بقضية الفلكلور، أنّ ظهرت عدة مصطلحات تقابل مصطلح "فلكلور"، مثل: الأدب الشعبي، التراث الشعبي، أو المأثورات الشعبية، وهذا الأخير هو المصطلح الذي أقره المجتمع اللغوي في القاهرة، والمأثور لغة: هو المنقول قرنا عن قرن، ولعل هذا المصطلح أقرب مصطلحاتنا العربية للدلالة على الفلكلور" (4).

2. فروع التراث الشعبي:

التراث الشعبي هو نتاج علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع علاقته بالطبيعة، وعليه فهو يمثل حياة الإنسان بكل جوانبها الاجتماعية والثقافية والنفسية.. وهي في الغالب متمثلة في الفنون القولية، وهي كما يلي:

1- **الأمثال الشعبية:** أقوال حكيمة بليغة، قصيرة موجزة، وتصور المعنى، شائعة الاستعمال.

2- **الأغنية الشعبية:** تلك الأغنية النابعة من الشعب، وتصور حياته، ويتفاعل معها، بصورة عفوية، منظومة باللهجة الدارجة، وتروى مشافهة.

3- **النكتة:** تعبير روائي قصير ساخر، تعكس مزاج الشعب.

4- **نداءات الباعة:** كي تعتبر من التراث يشترط فيها أن تكون بليغة، وذات لحن غنائي. (5)

3- **الحكاية الشعبية:** كما يعرفها أحمد رشدي صالح: "فن القول بالعادات والتقاليد، والحكاية هي العمود الفقري في التراث الشعبي، وهي التي نطلق عليها مجازا الأدب الشعبي". (6)

أما الفرع الثاني من فروع الفلكلور فيتمثل في الأشغال الفنية اليومية، والتي لاقت رفضا بالغا من طرف أهل الاختصاص، لكن أعيد لها اعتبارها مؤخرا، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من تراثنا العربي، ونذكر منها على سبيل المثال: صناعة الجلود، الفخار، النسيج، الصوف... أما الفروع الأخرى، فتتمثل في الرقص الشعبي، والموسيقى الشعبية، والدريكات..إلخ..

3. أهمية دراسة التراث الشعبي:

يمكن حصر الأهمية من دراسة التراث الشعبي في ثلاثة نقاط مهمة، منها:

أولاً- التوازن بين القيم المادية والقيم الأخلاقية:

معروف عن العالم الذي نعيشه اليوم، أنه مزدهم بالمادية والتقدم التكنولوجي والحضاري، أما القيم الروحية والنفسية والأخلاقية التي يتمتع بها الإنسان، فقد بقيت مهمشة نوعاً ما، والحضارة المتقدمة والمتطورة والخالدة، هي التي تحاول أن تربط بين ما هو أصيل، يعبر عن ماضيها؛ كالقيم الأخلاقية والروحية، وبين ما هو معاصر، كالجانب لمادي والعلمي، وهذا ما يحاول وطننا العربي أن يقف عليه من أجل الحفاظ على هويتنا وقوميتنا، على الرغم من التقدم الحضاري والعلمي والتكنولوجي السريع.

ثانياً- رواية جوانب تاريخ الفكر البشري:

إن الدراسة من هذا النوع، تمكننا من معرفة جوانب الفكر البشري، وتعطينا صورة أقرب للأجيال الماضية والحالية، ومدى تفاعلها مع بيئتها الجغرافية، انطلاقاً من التراكم الذي يتميز به التراث.

ثالثاً- " إن التشابه التراثي بين أبناء الأمة الواحدة، لحري أن يضيف على القومية مفاهيم إضافية، لشدها، وتثبيت جذورها." (7)

4. الأدب الشعبي (المفهوم والمضمون):

قدم لنا "محمود تيمور" مجموعة من الأبحاث والدراسات في القصة والمسرح، " جرى الاصطلاح بإطلاق صفة (الشعبي) على الوضيع والرخيص، أو ما دون المستوى الرفيع، نقول فكرة شعبية، أي أنها مشوبة بمطاوعة الأهواء والنزوات لا سلامة فيها ولا سداد، ونقول نكتة شعبية، نريد أنها لا تخلو من تبذل وإسفاف، ونقول ثوب شعبي للدلالة على أنه من نسيج غير فاخر، لذلك يرخص ثمنه، ولا يعزّ شراؤه، فكل ما هو منسوب إلى الشعب، محمول عليه بجانب السمو، والأصالة والجودة، مفروض فيه الابتذال والتفاهة والهون." (8)

ثم يتساءل بعد ذلك، إن كان الأدب الشعبي يمتلك هاته الصفات المذكورة أم لا؟ ويرد "محمود تيمور" على نفسه قائلاً: "إن الأدب المنحط

المبتذل، لا يمكن نعتة بالشعبي، لأنّ صفة الابتذال والانهطاط تلحق بكتاب الأدب، لا بالشعب.. إذ بأية حال من الأحوال، لا يمكن أن يعين الأدب الشعبي أدب الانحلال والانهطاط"⁽⁹⁾.

وهذا الدكتور "محمود ذهني" بدوره هو الآخر يعرف لنا الأدب الشعبي، ويقول: " هو يحمل الفنون القولية التلقائية، وهاته الفنون هي على رأس قائمة فروع التراث، ونقلت هاته الفنون بلهجة دارجة، من جيل إلى جيل، وبشكل شفاهي، وهي تعبير عن تفاعل الإنسان ومعارفه، وأحاسيسه ومشاعره، وتشمل هاته الفنون على الحكاية الشعبية، المثل الشعبي، الأغنية الشعبية، النادرة والنكتة، نداءات الباعة"⁽¹⁰⁾.

وعليه لا يمكن لأي شخص أن يدعي موروثا شعبيا معيننا لنفسه،.. يمكن جدا أن يكون هو صاحب القصة أو المثل الشعبي، أو صاحب تجربة شخصية، فهو -هنا- أشبه ما يكون برمي حجر في الماء، وما ينتج عن ذلك من دوائر، فالنقطة المركزية يمثلها هذا الشخص، أما الدوائر في تمثل الجماهير الشعبية في بيئات اجتماعية معينة، عبر عصور مختلفة، وثقافات متعددة.. وعليه يمكننا القول أنّ بناء مثل هذا النوع من الإبداع يكون كحصيلة تراكمية لمجتمعات مختلفة، ولكن متناسقة..

5. سمات الأدب الشعبي:

يتميز الأدب الشعبي، بمجموعة من السمات، يمكن أن نلخصها في نقاط خمسة، وهي:

أولا- **اللغة**: ويتعارف الجميع على أنها تتمثل في اللغة العامية الشبيهة باللغة الفصحى، لكنها أسهل منها بكثير، متداولة بين أوساط المجتمعات الشعبية.

ثانيا- **الموضوع**: الأدب الشعبي يتناول أيّ موضوع، أو كلّ المواضيع التي تكون لها علاقة بالفرد في حدّ ذاته، حتى أنه يحس أنه يتحدث عنه، أو تكون مواضيعه عامة تمس أي فرد من أفراد المجتمع.

ثالثا- **الشكل**: يعتبر الأدب الشعبي غنيّ بأشكاله، فقد يكون على شكل قصة شعبية مشبعة بأحكام وأمثال.. وقد تتحول إلى أغنية شعبية، أو مسرحية شعبية.. أو تكون كل هاته الفنون مجتمعة في نص إبداعي واحد.

رابعا- **الوسائل**: يستخدم الأدب الشعبي كل الوسائل لتحقيق مراميه وأهدافه، فقد يضع المفهوم في أسطورة أو ملحمة أو سيرة أو دراما.. غرضه في ذلك تحقيق الغاية.

خامسا- **العفوية والتلقائية**: يعتمد الأدب الشعبي على العفوية والفطرة بشكل كبير، وهذا ما يجعله يتميز عن الأدب الرسمي، بحيث نلتمس فيه لا منطقية في ربط أحداث النص، بعكس الأدب الناطق باللغة الفصحى، التي يعتمد على الفعل والمنطق.

من هنا أكد الباحث أحمد رشدي صالح: " أن الأدب الشعبي أكثر صدقا في إعطاء الصورة الحقيقية للعملية الاجتماعية، ومن هاته السمات نستطيع أن نحدد للشعبية معلّمين أساسيين هما:

1- **الانتشار أو التداول**: بحيث يشمل هذا الأدب كل طبقات المجتمع، وذلك بعكس الأدب الرسمي، الذي تتناوله طبقة معينة.

2- **التراثية أو الخلود**: إن هذا الأدب يستطيع أن يطفو فوق سطح زمن، ليقابل كلّ عصر بنفس الجدة والحيوية، ويلتقي مع كلّ جيل، بنفس الانفعال والتأثير".⁽¹¹⁾

معنى ذلك أنّ أهمّ مميزات الأدب الشعبي هما: الانتشار الذي يكون على مستوى الأمة، والتراثية أو الخلود الذي يكون على مستوى الزمن...

6/ **علاقة الأدب الرسمي وصلته بالأدب الشعبي العربي وبغيره**:
إن الهدف الأسمى للأدب عموما، هو تلبية حاجات الإنسان المادية منها والروحية، مهما كان نوعها (شعبي أو رسمي)، فإنّ غايته تتمثل في تلك الفنية والجمالية والشعرية والمتعة، التي يحسّ بها المتلقي (القارئ)، بالإضافة إلى الغايات التعليمية، المتمثلة في الفرد وتوجيهه إلى الطريق

الصحيح، والعلاقة بين الأدبين وطيدة، ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

أ- اعتماد الأدب الرسمي على الأدب الشعبي: يعتبر الأدب الشعبي المصدر الأساس الذي ينطلق منه الأدباء في العصر الحديث، وحتى المعاصر، أمثال: بدر شاكر السياب، ومحمود درويش، سميح القاسم، فدوى طوقان، عبد الوهاب البياتي،... وغيرهم كثيرون..

ويؤكد الناقد "فاروق رشيد" هاته القضية في قوله: "إن قضية ربط الأدب الرسمي بالموروث الشعبي ... وذلك ليحقق إنسانيته، ويصور تطور الوجدان والضمير، وهذا واضح من ارتباط الآداب الأوروبية بالميتولوجية الإغريقية، كالألياذة والأوديسة"⁽¹²⁾.

ب- اعتماد الأدب الشعبي على الأدب الرسمي: الشيء المسلّم به، أن الأدب الشعبي له مصدر أو أصل ينطلق منه، فهو لا ينطلق من فراغ، وهذا الأمر معروف عند الجميع، فالشخصيات البطلية المعروفة في أدبنا الفصيح كأمري القيس و"عنزة بن شداد وغيره .. هي في الحقيقة كانت أصل الحكايات والقصص الشعبية، أو سيرة بطل عربي معروف.. لكن تبقى الطريقة هي التي تحدد نوعية الأدب الشعبي، وطريقة السرد، بالإضافة إلى الخيال والمبالغة في الحكى واللامنطق..

وتبقى في الأخير اللغة والطريقة التي يحكى بها الأدب السبب في تحديد نوعيته، سواء أكان رسميا أم شعبيا، فكليلة ودمنة مثلا التي جاءت في حقيقتها ضد الحكم السياسي في عهد "سلطة المنصور"، فإذا تناولها الخاصة تنظم هاته الحكايات إلى الأدب الرسمي، وإذا تناولها العامة تدخل في إطار الأدب الشعبي.

ج- الأثر والتأثير بين الآداب: كثيرا ما نرى صورا من صور الأدب الشعبي مجتمعة معين، تتشابه مع صور مجتمعة آخر، على الرغم من اختلاف البيئات الاجتماعية.. وهنا تطرح إشكالية كبيرة، مفادها: ما هو الأدب الذي أثر في الآخر؟ وكيف حدث هذا التأثير؟

الإجابة عن السؤال الأول تحتاج في الحقيقة إلى مجموعة من الدراسات والأبحاث، لنصل إلى حلّ نهائي لهاته النقطة، أما الجواب عن السؤال الثاني، فيمكن تلاقي الأديين حسب ما جاءت به "جاستن باري" التي أرجعت السبب في التلاقي التاريخي للأدب، والذي لم يكن بالصدفة، بل كان عن طريق الحروب المستمرة بين الشعوب، أما الأدب الشعبي، فيحدث التلاقي فيه بالطبيعة الإنسانية، والفطرة الساذجة للشعوب.

7. وظائف الأدب الشعبي:

للأدب الشعبي مجموعة من الوظائف المهمة، والتي يمكن تمثيلها في النقاط التالية:

1- الوظيفة الجماعية: ترفع في هذا الإطار مقولة: " أن الإنسان اجتماعي بطبعه" وهذا صحيح، لأن الإنسان يعيش في بيئة اجتماعية لا بدّ له فيها أن يتواصل مع أبناء جنسه، ليتحقق كيانه كفرد في المجتمع، فالأدب الشعبي إذن ينبعث من المجتمع وطبائعه وأحاسيسه وطريقة تفكيره...

2- ترسيخ القيم والمعارف الإنسانية ونشرها: تتمتع الحياة الإنسانية بجملة من القيم الأخلاقية والمعارف الثقافية، والأدب الشعبي يعمل بكلّ ما لديه من وسائل، من أجل نشرها في المجتمعات على اختلافها (العربية والغربية)، ولم تتوقف مهمته عند هذا الحدّ، بل يعمل أيضا على نقد بعض القيم غير الأخلاقية وغير الثقافية، وينبذها ويحث على تركها..

3- الوظيفة النفسية والعاطفية: الأدب الشعبي -بطبعه- هو تعبير عن نفسيات وشعور أفراد مجتمعه، سواء أكانت مفرحة سارة أم حزينة.

4- الوظيفة النقدية التربوية: وتتمثل هاته الوظيفة بشكل خاص في الحكيم والأمثال الشعبية، التي تحث على التعاون والتسامح والودّ، ونبذ كلّ ما هو سلي، وغير أخلاقي...

وأخيرا، قد يكون لنا أن نقترح على كل من يهيمه تراث الأمة -على اختلاف أجناسه- أن يبادر في إمطة اللثام عن الأدب الشعبي في كامل البيئات العربية، فهل إلى ذلك سبيل؟!

الهوامش والمراجع المعتمدة

- (1) صالح أحمد رشدي، الفنون الشعبية، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، طبعة 1961، ص: 14.
- (2) المرجع السابق، ص: 25.
- (3) عبد اللطيف البرغوثي، ملامح الأغنية الفلسطينية، محاضرة أقيمت في مركز تدريب المعلمين في رام الله، عام 1993.
- (4) نبي علقم، مدخل لدراسة الفلكلور، البيرة، منشورات جمعية إنعاش الأسرة، الطبعة الثالثة، 1993، ص: 09.
- (5) عمر السائرسى، ماهية الفلكلور، عمان، مجلة الفنون الشعبية، العدد الأول، كانون الثاني، 1974، ص: 25.
- (6) صالح أحمد رشدي، المرجع السابق، ص: 31.
- (7) نبيل علقم، المرجع السابق، ص، ن.
- (8) محمود تيمور، فنّ القصّ -دراسات في القصة والمسرح- مصر، مكتبة الآداب ومطبعتها، دون طبعة، دون تاريخ، ص: 05.
- (9) م، س، ص، ن.
- (10) محمود ذهني، الأدب الشعبي العربي-مفهومه ومضمونه- مكتبة الأجلو المصرية، دون طبعة، بدون تاريخ، ص: 21.
- (11) أحمد رشدي صالح، الفلكلور العربي المعاصر، مجلة الفنون الشعبية، العدد الرابع، نقلا عن: نبيل علقم، مدخل لدراسة الفلكلور، ص: 35.
- (12) فاروق خورشيد، عالم الأدب العجيب، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1991، ص: 31.